الديمومة الدِّينيّة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١٣/٣/٢٠٠٩م

مهما توهَّم المتوهِّمون أهم بمكر الليل والنهار يقدرون على زعزعة ما بناه الله تبارك وتعالى، وشيّد بنيانه، وأسس أركانه بثوابت هذا الدين الإسلاميّ العظيم، فإنهم واهمون حقًّا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما بعث سيدنا محمدًا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تكفّل ببقاء هذا الدين وديمومته.

ونقرأ في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم رحمة الله عليه، عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لاَ يَزَالُ الدّينُ قَائِمًا حَتّىَ تَقُومَ السّاعَةُ).

وهذا البيان الثابت عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نجد معناه في كتاب الله تبارك وتعالى في نصوص متعددة:

قال تعالى: { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } [آل عمران: ١٠١].

وقال تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: ٩].

إنها آيات كثيرة لا أريد في هذه الساعة أن أذكرها وأن أستعرضها، لكنني أشير إلى عناصر هذه الديمومة، ولكن قبل أن أتحدث بالتفصيل أشير إلى أن الله سبحانه وتعالى بالنص القرآنيّ ربط بين الإيمان وعنصرين اثنين: **كلام الله، والشخص الاعتباريّ الحاضر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم**، وذلك بقوله سبحانه: { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } [آل عمران: ١٠١].

فلا يمكن للكفر أن تقوم له قائمة بحيث يستأصل شوكة الدين ويمحو بنيانه، طالما وُجِد فينا كلامُ الله والشخصُ الاعتباريُّ المستمرّ الحاضر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وكنت البارحة أتحدث في جلسة خاصة، وقلت للإخوة: لئن كنا نحن في بلاد الشام (وفي معظم أرجاء البلاد الإسلامية) نُجدد التواصل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الربيع وفي شهر الربيع الأنور، فإنني في هذه المرحلة التي تمتلئ بالأزمات لن أعتب على الذين لا يريدون أن يكون هذا الموسم بعينه موسمَ تجديد للتواصل.

وقلت: فليجددوا تواصلهم في أي وقت شاؤوا: في شهر رمضان، أو في أشهر الحج... لا يهم، فالمهم أن نبقى في تجديد التواصل، وقد تتعدد مظاهر تجديد التواصل، فقد تكون من خلال ما هو شائع حينما نجتمع لإحياء ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلمات والثناء والمديح، لكن مظاهر تجديد التواصل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متنوعة وكثيرة جدًّا: فقد تكون عِلمية، وقد تكون عملية، بل إن الذي يُتقن عمله مستشعرًا أنه بهذا يُطبّق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه في هذا يُقدّم مظهرًا من مظاهر التواصل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذًا: أعود إلى موضوعنا في هذا اليوم وأقول: العنصران الرئيسان: كلامُ الله، والشخصُ الاعتباريّ الحاضر الباقي في كل لحظة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن مؤشرات الديمومة عناصر ثلاثة:

١ - بقاء المرجعية النصّية من كلام الله تبارك وتعالى وحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ - بقاء تطبيقات الكتاب والسنّة حاضرة من خلال دوام التجديد.

٣ - بقاء النماذج البشرية التي تحمل الصفات المحمدية عبر الأزمنة.

واسمحوا لي أن أشرح في هذه العُجالة كلَّ عنصر من هذه العناصر الثلاثة التي تضمن ديمومة الدين إلى قيام الساعة:

١ - بقاء المرجعيّة النصيّة من كلام الله وحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم:

هذا البقاء الذي لا يؤثر عليه تغيّرُ الأزمان، ولا تبدُّلُ الظروف، فالنصّ القرآنيّ نصٌّ ثابت، وكذلك ما صَحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من بيانٍ شارِحٍ ومُفصِّل.

قد تتغير فهوم العلماء ومُستنبطاتهم وهم يقرؤون هذه المرجعية النصية ويرجعون إليها، لكن النصّ يبقى ثابتًا، ويعطي بدلالاته في كل وقت ما يحتاج إليه الناس على مختلف مستوياتهم:

فحينما يقرأ السياسيّ هذا النصّ من كلام الله وحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم يجد شيئًا يخصه ويدفعه إلى العدالة، ويدفعه إلى المساواة بين الناس، ويدفعه إلى البراءة من الظلم..

وحينما يقرأ الاقتصاديّ النصّ الثابت يجد فيه في كل زمان مع المتغيرات ما يعطيه انطلاقةً وتفوقًا في عالم الاقتصاد..

وحينما يرجع التربويّ والاجتماعيّ إلى هذا النصّ يجد فيه شيئًا يخصُّه ويتناسب مع المُتغيِّر الذي يعيشه...

ويلوح في كل عصر من خلال هذا النص الثابت ما تحتاج الأمة إليه، وما يبحث العالَم عنه.

ومن هنا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يؤكِّد على قضية نقل النصّ من غير تبديل أو تحريف.

وحين أرجع إلى كتابٍ استُنْبِط من النصّ فإنني (وأنا أعتبر استنباطه) لا أجدني مضطرًّا لقبوله على أنه من المُسلَّمات التي لا جدالَ فيها، لأنه مُستنبَط، لكنني حين أرجع إلى النصّ أجد شمسًا مشرِقة تغطِّي بإشعاعها وبريقها وضيائها كلَّ الأرض.

ومن هنا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحثّ هذه الأمة على نقل النصّ، حينما يقول صلى الله عليه وسلم: **(نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)**، فهو بهذا صلوات الله وسلامه عليه يؤكّد على نقل النصّ وحفظه كما هو من غير تبديل أو تغيير.

ثم يشير صلى الله عليه وسلم إلى قضية مهمة، وهي احتمال أن يكون المُبلَّغُ، الذي لم يسمع مباشرة أو بالسند، أوعى في فهم دلالة النصّ بحسب ما تطوّر في بيئته وظرفه.

وأردت أن أتناول على سبيل المثال لا على وجه الحصر بعض الأمثلة:

* فقد قُرئ قوله تبارك وتعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } [النحل: ٩٠]

ويُكرِّر هذه الآيةَ الخطباءُ في منتهى خطبهم، وهي سنة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، حين أراد أن يُلغي لعن سيدنا علي رضي الله تعالى عنه، ووضَع هذه السنة الحميدة التي التزم بها خطباء الجمعة، وبدلاً من أن يختُموا خطبهم بلعن سيدنا علي أمرهم أن يختموا خطبهم بهذه الآية الشاملة.

وقلت: ما الذي تقدّمه إلينا هذه الآية؟ وأردت أن أعيش مع هذه الآية التي تتضمن كلمات ثلاثة.

ما الذي يعطيه بحسب فهومنا المعاصرة هذا النص من دلالات، وهو مما نُقِل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي نُقِل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قرآن وحديث؟

وقلت: ما الذي يعنيه "عدل" و"إحسان" و"إيتاء لذي القربى"؟

- وفهمت أن قوله تبارك وتعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } يؤسس لدوام القانون العادل الناظم للمجتمع، الذي يساوي بين أفراد المجتمع.

العدل هو القانون الذي لا يُفرِّق بين كبير وصغير، ولا بين غنيّ وفقير، ولا بين كبير وصغير، ولا بين مأمور وأمير... والمجتمع بحاجة إلى العدل، لأن المجتمع لا قيام له بدون قانون، وحين أقول: القانون، فلا أعني النصّ النظريّ، لكنني أعني مع النصّ النظريّ التطبيقَ العمليّ والتفاعل الذي من خلاله تتحقق العدالة بحقّ.

إذًا: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } أي: القانون.

- { وَالإِحْسَانِ } الذي يضمن تطبيق القانون، فقد عرّف النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

هكذا سأل جبريل، وهكذا أجاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وحينما يعيش الإنسان حالة الرقابة لله تبارك وتعالى، فإن أجهزة الحُسبة مهما كانت ضعيفة أو قوية لن تؤثر على سَرَيَان هذا القانون على المستوى العمليّ، لأن المعزّز لتطبيقه ليس هو الرقابة البشرية، إنما هي رقابة الله.

وبهذا نكون قد ضَمِنّا قانونًا مُطبَّقًا.

- ثم تساءلت: ولماذا { وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } ؟

ورأيت أن الجواب على هذا: أن القانون يستطيع أن يُنظِّم العلاقات الخارجية: فيستطيع أن يُنظِّم الطُرقات، ويستطيع أن يُنظِّم المعاملات في الأسواق، لكن القانون لا يقدر على الدخول إلى البيوت، فهو عاجزٌ عن أن يُنظِّم علاقة الإنسان في الأسرة، كعلاقة الأب مع ابنه، وعلاقة الزوجة مع زوجها، وعلاقة الأخت مع أختها... أي العلاقات التي لا تصل إليها يد القانون، فجاء قوله تعالى: { وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى } مُكمِّلاً.

فقلت: يا الله، إنها كلمات ثلاثة، لكنها تقدّم مجتمعًا فاضلاً.

فلك أن تفهم من مرجعية النصّ طالما أنك لا تخرج بفهمك عن الإطار العامّ.

* ووقفت أمام حديثٍ من أحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو قوله صلوات الله وسلاماته عليه: (مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ، وَلا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ، وَلا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ)، وهو حديثٌ قال الإمام السيوطي: إنه حديث حسن، والحديث الحسن يندرج في الحديث الصالح للاستشهاد والتطبيق العمليّ.

هي كلمات معدودة، لكنها تؤسس لبناء متكامِل.

- فقوله: "مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ" يضمن في سلوك الفرد دوامَ الصِّلة بالله تبارك وتعالى، لأنه كلما أراد أن يقوم بسلوكٍ ما استخار الله تبارك وتعالى، إذًا: سيبقى في كل معاملاته كلما فكّر بفكرة، راجعًا إلى الله تبارك وتعالى، مستخيرًا إياه، متواصلاً معه... فهو يؤسس لدوام الصلة بالله.

- وقوله: "وَلا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ" يؤسس لدوام نظام الشورى في المجتمع، وينفي الفردية والأنانية التي شتَّتت هذا المجتمع وفرَّقته وجعلته بعيدًا كل البعد عن أن يكون فاعلاً ومؤثرًا.

- وقوله: "وَلا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ" يؤسس لسياسةٍ اقتصادية متوازنة تنفي الإفراط والتفريط.

إنها كلمات ثلاثة، لكنها تؤسس لفرد ومجتمع على أعلى مستويات النجاح.

وقد لا أجد هذا الكلام في مُستنبطات، لكنّ بقاء المرجعية النصية تجعل أهل الدراية والتدبُّر في كل زمان مستشعرين أن بقاء هذه المرجعية يضمن بقاء الدين، لأن الدلالات بمرونتها تضمن تجدُّدًا وتطورًا وبقاءً وثباتًا في قوة هذا الدين.

أما المؤشِّر الثاني من مؤشرات الديمومة الدينية فهو:

٢ - بقاء تطبيقات الكتاب والسنّة حاضرة من خلال دوام التجديد.

هناك تحدّثنا عن ثبوتية النص والتجدد في الاستنباط، لكن هاهنا نجد أن التطبيق العمليّ المعتدل يدوم من خلال ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم به عن دوام التجديد، ومعنى التجديد كما يُجمِع العلماء إنما هو: الإعادة إلى روح النصّ، ونفي المتراكِم الهامشيّ الذي قد ينشأ مع الأزمنة.

ونقرأ حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا).

وقضية المائة سنة قضيةٌ ذُكِرت في القرآن في دلالات التجدد، وذلك عندما نقرأ قصة عُزير، قال تعالى: { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } [البقرة: ٢٥٩]، عندما تساءل: { أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } .

إذًا: يقول علماء الحديث في شرح معنى التجديد: أن يبيّنوا السنة من البدعة.

ويقول غيرهم: التجديدُ إحياءُ ما اندَرَس من العمل بالكتاب والسنّة.

وهذا يعني أن الديمومة الدينية قد دُعِّمت من خلال ظهور نجباء، ضَمِن الله سبحانه وتعالى تعاقب ظهورهم، وقالوا: لا يُشترط أن يكون على رأس كل سنة واحد، إنما قد تكون جماعة.

وبهذا الضمان الذي يشير النبي صلى الله عليه وسلم إليه نجد تطبيقًا مُتجددَ المظهر يحيي ما اندرس، ويُذكِّر بما نُسي، وهي قضيةٌ ربما يَحار البعض فيها: أهي اختراع جديد؟ هل يعني هذا التجديد أن تظهر أساليب وأنظمة جديدة لتُظهر معاني الكتاب والسنّة في ألوان متلونة؟

نرجع إلى حديثٍ في صحيح الإمام مسلم يسأل فيه سعدُ بنُ هشام بنِ عامر السيدة عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها، ويقول: **"يا أُمّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنّ خُلُقَ نَبِيّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ الْقُرْآنَ"**، أي: إذا أردت أن تعرف ما عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فارجع إلى القرآن.

وكنت أتأمل في هذه العبارة التي تختصر القضية فيها أم المؤمنين عائشة: ما دلالاتها؟

حتى قرأت قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء: ٩]

وكنت أبحث بعدها وأقول: طالما أن خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن، وطالما أن الشخص الاعتباريّ لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو في حقيقته إلاَّ التطبيق العمليّ لهذا القرآن، فما ماهية القرآن؟ وهل لنا أن نختصر ما يقدّمه القرآن؟

فرأيت هذه الآية: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }

وبقي أن أنفذ إلى معنى الأقوم، فقرأت قوله تعالى:

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً، فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ، وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: ١-٥]

فنحن أمام لفظين:

الأول: **"أَقْوَمُ"**، والثاني الذي يصف الدين، والمُستمَد من الكتاب والسنّة، ويختصره بكلمة: **"دِينُ الْقَيِّمَةِ"**.

وحينما رجعت إلى الأصول اللغوية، رأيت أن هذه الوصف يفيد معنى الاعتدال، فدِينُ الْقَيِّمَـةِ أي: دين الاعتدال.

وهكذا يكون معنى قوله تبارك وتعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } أي يهدي إلى الاعتدال.

وهكذا يكون معنى التجديد إذًا: إعادة الناس إلى الاعتدال.

ولماذا ذُكِر قوله: { وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } في سورة البينة؟

والجواب: لأن هذه السورة جاءت تتحدث عن تخبُّط الوثنية المادية، وإفراط النصارى، وتفريط اليهود.

وهكذا يأتي المُنقِذ والمُنجد من أجل أن يعيد البشرية إلى الاعتدال، مُلغيًا بذلك الإفراط والتفريط.

وحينما يوجد الإفراط، وحينما يوجد التفريط، تحتاج الأمة إلى التجديد.

فالتجديد، الذي هو إحياء ما اندرَس، يرجع إلى مفهوم الاعتدال، فكم من إفراطٍ تراكَمَ، وكم من تفريطٍ تراكَمَ، فالتجديد ما هو إلا الإعادة إلى التعديل.

وجاء في صحيح البخاري، عن أنس بن مالك قال: **جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: (أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).**

هذا هو الاعتدال، وهكذا يكون التجديد.

ونقرأ حديثًا نقله البيهقي وابن خزيمة وغيرهما، وهو حديث صحيح، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيه: **(إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً)** أي يجذبك هذا العمل ببريقه وإعجابك به إلى الإفراط فيه، **(وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ)** أي: هذا الانجذاب المؤقت لا يلبث أن يعود، وتجده بعد ذلك في حالة من السكينة والاعتدال.

ثم يقول صلى الله عليه وسلم: **(فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ).**

وبهذا يُبيّن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن السُنّة النبوية توافق الاعتدال، فإذا أردت أن تفهم السُنّة فهي الاعتدال، وإذا أردت أن تفهم الاعتدال فهو السُنّة.

إذًا: المؤشر الأول: مؤشرٌ نظريّ وهو مرجعية نصيّة باقية.

المؤشر الثاني: تطبيقات عملية تُعيد إلى الأمة فهمَ سُنّة النبي صلى الله عليه وسلم، وفهم شخصه الاعتباريّ، حينما تُجسِّد للأمة معنى الاعتدال في الكتاب والسُنّة: { إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } .

٣- بقاء النماذج البشرية الحاملة للصفات المحمدية حاضرة لا تنقطع:

أي لابد في كل لحظة، وفي كل زمان، وفي كل نَفَس، من نماذج بشرية حاضرة، وليس من مائة سنة إلى مائة سنة، فهناك من مئة سنة إلى مئة سنة تحتاج إلى نهضة تجديدية لإعادة الناس إلى ذلك المنهج المُعتدِل، لكن هاهنا تجد في كل لحظة النماذج حاضرة.

جاء في حديثٍ أخرجه الحاكم والبزار والبيهقي مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ).

أي يتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن تواصلٍ مستمرّ، تنتقل الأمانة في هذا التواصل من جيل إلى جيل يخلفه، ويكون الذين يحملونه عدولاً، أي أصحاب عدالة، والعدالة هي: الاستقامة والصدق والإخلاص...

قال الخطيب: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فقال: هو صحيح.

وفي حديث أخرجه الحاكم، ولفظه: **(لا تَزَال طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ).**

وفي رواية مسلم: **(لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ، لا يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ).**

وفي رواية صحيحة لمسلم، يرويها سعد بن أبي وقاص يقول: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: **(لاَ يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ حَتّىَ تَقُومَ السّاعَةَ).**

ويشرح أهل الحديث بحسب الدلالات التي كانت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى "أهل الغرب" فيقولون: هم أهل الشام، وكان يُطلق على أهل الشام لفظ "أهل الغرب" لأنهم كانوا بالنسبة للحركة التي يسيرها الراحل ما بين الجنوب والشمال في الغرب.

فكل من يسير من القوافل كان لديهم الشرق والغرب، فالشرق فارس، وكان الغرب يمثّل الروم، ومركزُهم الشام، أي كان ساحلُ البحر الأبيض المتوسط الشرقيّ بالنسبة للعرب أقصى غربهم.

إذاً: يقول صلى الله عليه وسلم، والحديث في صحيح مسلم: **(لاَ يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ حَتّىَ تَقُومَ السّاعَةَ).**

وبعيدًا عن الإقليمية، وبعيدًا عن جذب الحديث إلى جهة دون جهة، سيبقى هذا الدين..

وحين نتحدث عن الشام فأنتم تعرفون أن الشام فيها فلسطين، وفيها الأردن، وفيها لبنان، وفيها سورية، وهذه كلها الشام، التي فيها الذين يتمسكون بالكتاب والسُنّة ويلتزمون منهج الحقّ فيهما.

وأعود وأقول: بعيدًا عن الإقليمية وجذبِ الدين إلى جهة دون جهة، ما يهمنا في هذا الموضوع إنما هو الديمومة الدينية.

الرهان الذي لن نخسره أبدًا: الديمومة الدينية.

ومهما أُريدَ لهذه الأمة أن تتحلل في أخلاقها، ومهما أُريدَ لهذه الأمة أن تبتعد في أصولها النظرية عن الإسلام، ومهما أُريدَ لهذه الأمة أن تُشوّه مبادئها، ومهما أُريدَ لهذه الأمة أن تختلط أوراقها... فرهاننا على ديمومة الدين لا يخسر أبدًا، لأنه يستند إلى قول الله ورسوله، ولأنه يستند إلى حتميةٍ لا يمكن أن تتخلف.

الرابح هو الذي لا يشكُّ في هذه الحتمية مهما رأى تقلُّبَ الظروف وتغيّرها، فلابد للّيل أن ينجلي.

اثبتوا على إسلامكم أيها الشباب..

تمسكوا بمنهج الاعتدال الذي وصل إليكم عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

اقرؤوا القرآن قراءةً واعيةً مُتدبِّرة..

اقرؤوا حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم قراءةَ التلميذ على أستاذه، فأستاذنا الأكبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما صَحّ من الحديث عنه هو منهل مورد ينبغي ألا ننقطع عنه أبدًا، وينبغي أن نتواصل معه كل يوم، وأن تتواصل عقولنا معه، وأن تتواصل قلوبنا معه، وأن تتواصل أرواحنا معه..

طريق نجاتكم هو الإسلام، مهما نهق الناهقون، ومهما كذّب المكذِّبون..

طريق النجاح هو الإسلام.

وأقول لكم وأنا أختم: إن المراكز المتطورة في الغرب (بعُرفنا الحاضر لا بالعُرف القديم) تتحدث عن أن الإسلام وأهله أصبحوا قضيةً لا يمكن أن تُتجاوز، وأصبحوا الرقم الصعب (كما يقولون) الذي لا يمكن حذفه من أي معادلة، لذلك تجدون اليوم في الساحة العالمية أمورًا جديدة كثيرة، فالغرب يمد يده محاولاً أن يجد طريقًا ما لمصالحه من خلال القوة الكامنة الحاضرة التي هي القوة الإسلامية.

واللهِ مهما رأيتم اليوم من مظاهر الضعف في الأمة الإسلامية فإن القوة الإسلامية الاعتبارية قوية وحاضرة، ومهما أراد الأقزام إلغاءها فلا يمكن إلغاؤها أبدًا.

وأهل الدراسات التي تستند إلى تحليلٍ منطقيٍّ وصلوا إلى هذه النتيجة وهي أن الإسلام لا يمكن تجاوزه، وأبناء الإسلام لا يمكن تجاوزهم، لكن ومع الأسف يتوهم المُغفَّلون من أبناء جلدتنا أن هؤلاء يقدرون على تجاوز الإسلام.

ثقوا بحتمية ظهور الإسلام وبقائه وديمومته، وتمسكوا به، فإن الرابح إنما هو المتمسك به في نهاية المطاف.

رُدّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.